Dirasat, Human and Social Sciences, Volume 49, No. 5, 2022

Deanship of Scientific Research

Al-Jahiz and the Disabled People (The Book of the Lepers, the Lames, the Blinds, and the Squitings) Study and Analysis

Abbas Abbas*

Arab Open University, Jordan.

Received: 17/3/2021
Revised: 16/5/2021
Accepted: 13/6/2021
Published: 15/9/2022

* *Corresponding author:*
a_abbas@aou.edu.jo

Citation: Abbas, A. . (2022). Al-Jahiz and the Disabled People (The Book of the Lepers, the Lames, the Blinds, and the Squitings) Study and Analysis. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *49*(5), 13–22. https://doi.org/10.35516/hum.v49i5.2773

© 2022 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

The current study is mainly concerned to shed light on an obscured subject in our literary heritage that our contemporary culture has not yet recognized. It is the subject of the disabled people and those with special needs among ancient Arab writers and researchers, through a book that was written by Abu Uthman Amr bin Bahr Al-Jahiz (died 255 AH), under the title (The Lepers, the Lames, the Blinds and the Squintings) in which Al-Jahiz addressed these people and other disabled and people with special needs, with great care, dignity, and respect. The book speaks about their nobles, and indicates their determination and features, detailing the types of disabilities they have, and criticizing those who condemned them and denied them their rights. The study aimed to approach this book and indicate its position among other works similar to it, and then show its value in the human, social, educational and scientific aspects, through an analytical and investigative approach, in which the researcher tried to take this work as a witness and evidence of the tendency of fairness and reform towards people with disabilities, and restore to them their consideration in our ancient Arab heritage.

Keywords: Disability, deficiencies, fairness, heritage, ugliness aesthetics, human values.

الجاحظ وذوو الاحتياجات الخاصة كتاب (البرصان والعرجان والعميان) دراسة وتحليل

*عباس عباس**

الجامعة العربية المفتوحة، الأردن

ملخّص

عنيت الدراسة الحالية بإلقاء الضوء على موضوع مغمور في تراثنا الأدبي لم تتعرف إليه ثقافتنا المعاصرة بعد، وهو موضوع المعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة عند الأدباء والباحثين العرب القدماء، وذلك من خلال كتاب ألفه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت 255هـ) وهو كتاب(البُرصان والعرجان والعميان والحولان) الذي تناول فيه الجاحظ هؤلاء الناس وغيرهم من المعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة، بكثير من العناية والإجلال والاحترام، متحدثًا عن أشرافهم، ومبينًا عزمهم ومزاياهم، ومفصلًا لأنواع الإعاقات عندهم، ومنتقدًا لمن ذمهم وسلبهم حقهم. فعمدت الدراسة إلى مقاربة هذا الكتاب وبيان موقعه بين الأعمال المشابهة له، ومن ثَم تبيان قيمته في النواحي الإنسانية والاجتماعية التربوية والعلمية، بمنهج تحليلي استقصائي، حاول فيه الباحث أن يتخذ من هذا العمل شاهدًا ودليلًا على نزعة الإنصاف والإصلاح تجاه ذوي الإعاقات، وإعادة الاعتبار لهم، في تراثنا العربي القديم.

الكلمات الدالة: الإعاقة-المثالب، الإنصاف، التراث، جماليات القبح، القيم الإنسانية.

المقدمة:

لا تزال البحوث والدراسات التربوية والاجتماعية تولي أصحاب الاحتياجات الخاصة عناية تتزايد يومًا بعد يوم، ولعل ما حدث لهذه الفئة من الناس خلال العشرين سنة الماضية من التركيز والاهتمام على قضاياهم وأوضاعهم لهو دليل قاطع على تغيّر النظرة إليهم، والرغبة في دعمهم ومساعدتهم، إنما دمجهم في مجتمعاتهم، والتحول بهم نحو الإنتاجية والعطاء، والتخلي عن النظرة الاجتماعية النمطية القديمة، التي كانت تعتبرهم فئة من العجزة، وغير القادرين. وقد امتلأت رفوف المكتبات بعناوين المؤلفات التي كتبها المختصون لبحث القضايا المختلفة المتعلقة بذوي الإعاقة أو الاحتياجات الخاصة، فضلًا عن أن العديد من الجامعات باتت تطرح تخصصات ذات علاقة بهم، وتخرّج أفواجًا من الخبراء والمختصين في هذا المجال وتعقد المؤتمرات المتخصصة حولهم، وتصدر المجلات المحصورة بشؤونهم.

في خضم التغيرّات الكثيرة التي طالت معظم نواحي الحياة، يلمس المتابع للبحوث والدراسات المتعلقة بمجالات الإعاقة وذوي الاحتياجات الخاصة تغيرّات جذرية في تعامل المجتمعات مع هذه الفئة من الناس ومع حقوقهم ومشكلاتهم، فبعدما كان الشخص المعاق يعد عبئا وثقلًا على كاهل الأسرة، وينظر إليه بصفته مشكلة عصية عن الحل، صار المختصون والمعنيون بهذا المجال ينادون بحقوق الأشخاص المعاقين، ويوضحون لأسرهم وذويهم طرقا علمية للتعامل معهم، وسبلا لحل مشكلاتهم، وكيفية دمجهم وإعادة تأهليهم، بحيث غدت الأُسر لا تخجل من وجود شخص معاق بين أفرادها، وراحت تعمل على دمجه في مراكز ومعاهد خاصة لتعليمه وتأهليه، ليصبح فردًا ناجحًا ومنتجا في المجتمع، لا عالة عليه.

وبما أنّ مشكلة الإعاقة قديمة قدم المجتمعات، وأنّ القرآن الكريم والحديث الشريف تحدثا عن هؤلاء الناس، وكانت نظرتهما واضحة باتجاه مراعاة ظروفهم، ومنحهم العذر في كثير مما كُلف به الأصحاء، فإننا نتساءَل عن موقف تراثنا الأدبي من هذه المشكلة، كيف نظر إليها المؤلفون العرب القدماء؟ وما مدى تغطيتهم لها أو لجوانب منها، في تراثنا الأدبي الممتد عبر الزمان والمكان؟

الدراسات السابقة:

يبدو أننا لا نملك دراسات سابقة حول موضوع (الإعاقة في موروثنا الأدبي)، مع أنّ أدبنا العربي أعطى فئة المعاقين اهتمامًا جيدًا، وكان كتاب الجاحظ (ت 255) هـ الذي بين أيدينا وعنوانه: (البرصان والعرجان والعميان والحولان(

أبرز هذه المؤلفات في سياق هذه الدراسة، التي ستتناوله بالدراسة والتفصيل، مع الإشارة الموجزة إلى كتب أخرى في هذا المجال، ويبدو أن الدراسات السابقة لدراستي هذه تركزت فقط حول موضوع (الإعاقة في النصوص الدينية والإرث الفلسفي)، وهو الأمر الذي مثّل لي دافعًا قويًا لإنجاز هذه الدراسة لتكون دراسة رائدة حول تراث وموضوع أهمله الدارسون - على أهميته – فهو يتناول موضوعًا نادرًا في تراثنا الأدبي، قل تناوله عند القدماء، وفي الوقت الذي أغفل فيه الدارسون هذه النصوص الأدبية النادره حول ذوي الاحتياجات الخاصة، نجد العديد من الدراسات التي تناولت هذه الفئة من الناس في النصوص الدينية (القرآن الكريم والحديث الشريف) كما نجد نزرًا قليلًا من الدراسات تناولت هذه الفئة في التاريخ والأعمال الفلسفية، اليونانية منها على وجه الخصوص.

وعليه يمكن إجمال هذه الدراسات السابقة لدراستي هذه فيما يأتي:

- تجليات شخصية المعاق في الرواية الجزائرية، للطالبتين: سارة بن فردي، وياسمية مصطفاوي، وهي رسالة ماجستير مسجلة بجامعة العربي بن مهيدي، بالجزائر سنة (2018). تحدثت الباحثتان فيها عن الإعاقة في التاريخ الإنساني، والإعاقة في الشرائع السماوية والإعاقة في الفكر الإنساني،ولم تذكر الدراسة شيئًا عن المعاقين في تراث العرب الأدبي.

- الاتجاهات نحو الأطفال المعاقين عبر التاريخ، لعواطف علي الستيوي، بحث منشور على عدد من مواقع الإنترنت، تحدثت فيه الباحثة عن اتجاهات تاريخية متعددة نحو المعاقين، عند قدماء المصريين، وفي تعاليم كونفوشيوس في الصين، وفي الحضارة الإغريقية، وعند العرب قبل الإسلام، وعند الهنود. ثم تحدثت عن الاتجاه نحو المعاقين في الدين الإسلامي: في القرآن والحديث الشريف، وتاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، وانتقلت الباحثة بعد ذلك إلى وضع المعاقين في العصر الحديث.

- أدب الطفل والإعاقة من منظور النقد، لصباح عبد الكريم عيسوي، بحث منشور على موقع مجلة المنال، 2020، خصص البحث جزءًا منه للنظرة إلى الإعاقة في الحضارة الإغريقية.

- لماذا عادى الفلاسفةُ المعاقين وأصحاب العاهات؟ لصلاح حسن رشيد، بحث منشور بالمجلة العربية، ع 527، اكتوبر،2016، تناول فيه مواقف أرسطوطاليس وأفلاطون، ومواقف فلاسفة عصر النهضة من المعاقين.

الإعاقة في النصوص الدينية

أشار القرآن الكريم إلى ذوي الإعاقات والاحتياجات الخاصة بنوع من الإنصاف والدعوة إلى معاملتهم معاملة عادلة اجتماعيًا وفقهيًا، ففي قصة عبدالله بن أم مكتوم الكفيف نزلت الآيات القرآنية الكريمة: " عبس وتولى (1) أن جاءَه الأعمى(2) وما يدريك لعله يزّكى(3) أو يتذّكر فتنفعه الذكرى(4)

أما من استغنى(5) فأنــت له تصدّى(6) وما عليك ألاّ يزّكى(7) وأما من جاءك يسعى(8) وهو يخشى" (عبس: 1-9)

وفيها عتاب رقيق من الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم، حيث تروي القصة إعراض الرسول الكريم عن هذا الكفيف الذي جاءه يطلب بعض الفقه في الدين، في الوقت الذي كان فيه الرسول الكريم يدعو بعض زعماء قريش، وبسبب إصرار عبدالله بن أم مكتوم ظهر من الرسول بعض العبوس والتضايق، فنزلت الآيات السابقة، ومذ ذاك أكرم النبي الكريم ابن أم مكتوم، وصار يرحب به بقوله: ((مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي)). ففي هذه الآيات دلالة واضحة على رعاية القرآن للمعاقين، وذوي الاحتياجات الخاصة، ودعوته إلى الاهتمام بهم، مهما كانت الظروف والسياقات.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الفئة من الناس في سياق الرخصة الفقهية، في قوله تعالى: " ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج"(النور: 61) فهم من ذوي الأعذار الموجبة للتخفيــــف عنهم في الالتزامات الشرعية والتكاليف، فالقاعدة الشرعية العامة حددتها الآية الكريمة: "لا يكلّف الله نفسًا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت" (البقرة: 286)

وفي آية آخرى: " ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم " (التوبة:91(

أمّا في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقد رأينا كيف راجع النبي الكريم نفسه مع ابن أم مكتوم، وكـيف أحسن إليه، بل جعله مؤذنًا له مع بلال، وسمح له أن يؤم الناس.

كما إنّ قصته عليه الصلاة والسلام مع عمرو بن الجموح، وكان رجلًا شديد العرج، تدل على نظرته الإيجابية لذوي الإعاقات، وتشجيعه لهم، فضلًا عن تعليم الصحابة أن يحترموا هذه الفئة من الناس، ويؤمنوا بطاقاتـــهم وقدراتهم. تروي القصة أن عمرو بن الجموح " كان رجلًا أعرج، وكان له بنون يشهدون المشاهد مع رسول الله صــلى الله عليه وسلم، فلما كان يوم أُحد أرادوا حبسه، فأتى إلى رسول الله وقال: إن بنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال مخاطبًا عمروًا: أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك. وقال لبنيه: ما عليكم ألّا تمنعوه لعل الله يرزقه شهادة، فخرج مع النبي، فقُتل يوم أُحد، ثم قال عنه: لقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته" (السرجاني،2006)

الإعاقة في الفكر الفلسفي

رصد بعض الدراسين نزرًا قليلًا من المواقف التي أبداها بعض الفلاسفة تجاه المعاقين وذوي الاحتياجات الخاصة، وكانت هذه المواقف – على قلتها – تشير إلى اتجاهات سلبية تجاههم، وها هو صلاح حسن رشيد، في مقالته: لماذا عادى الفلاسفةُ المعاقين وأصحابَ العاهات؟ يوضح أن أهل الفلسفة وقعوا في التناقض والتمييز العنصري، عندما ميّزوا بين البشر على أساس الصحة والاعتلال، وعندما رفعوا من شأن الإنسان الكامل، وأهملوا المعاقين وأصحاب العاهات، وعدّوهم عالة

على المجتمعات.(رشيد،2016: ص11)

وهو بهذا يؤيد الفكرة ذاتها لأستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة مصطفى النشار الذي يرى أن أبــرز صــور تناقض الفلاسفة في النظر إلى الناس تلك التي توضح "موقفهم من أولئك البشر الذين ولدوا وبهم نوع من النقص، حيث نجد معظمهم، سواء في تاريخ الفلسفة القديمة أو الحديثة، يهملون إهمالًا تامًا هذا الإنسان المعاق، بل يهاجمونه، ويعدونه زائـــدًا عن الحاجة، فلا يصح الاهتمام به، أو رعايته"(النشار،2011:ص30)

ولو حاولنا الاطلاع على بعض الآراء والأفكار التي مثّلت مواقف مهمة لبعض الفلاسفة من ذوي الاحتياجات الخاصة، فيمكن أن نشير إلى ما ورد في جمهورية أفلاطون في هذا الصدد، فهو " يرى إخراج المعاقين من مدينته الفاضلة؛لأنــهم لا يؤدون المطلوب منهم لإنجاح هذه المدينة"(ميان،2019)

وفي هذا نظرة براجماتية ظالمة، إذ كيف يحرم فيلسوف حكيم إنسانًا لا ذنب له فيــما لحق به، أو خلق معه من إعاقة، من حقوقه وما يحقق له إنسانيته؟! ولعل مردّ هذا الظلم هو هوس الفلاسفة القدماء بالبحث عن عالم المُـثل، ومحاولة تحقيقه دون الأخذ بعين الاعتبار النواحي الأخلاقية والإنسانية في هذا البحث. ويرى الباحثون أيضًا أن موقف أرسطو طاليس لم يخـتلف كثيرًا عن موقف استاذه افلاطون في هذا السياق " فهو فيلسوف مثالي مثله، وفي كتابه (السياسة) تحدث عن المديـــنة الفاضلة، مدينة الأقوياء الأصحاء فقط! "(رشيد،2016:ص31)

ولا شك في أن هذا الفكر الفلسفي القديم استمرت تأثيراته في فلسفة عصر النهضة وفلاسفته، " فهناك مجموعة من الفلاســـفة العنصريين الذين آمنوا بضرورة التمييز بين البشر، على أساس القوة والضعف، فهم من أنصار فلسفة السوبرمان، أي الإنسان الأعلى! وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني الشهير نيتشه، وبعده الأديب والفيلسوف الإيرلندي جورج برناردشو" (رشيد،2016).

الإعاقة في تراثنا الأدبي

إنّ التتبع الزمني للمؤلفين الذين تناولوا موضوع الإعاقة والمعاقين في تراثنا الأدبي يظهر لنا مجموعة من المؤلفات التي ذكـر فيها أصحابها فئة المعاقين، وهي على النحو الآتي:

أولًا: كتاب (المثالب) للهيثم بن عدي (207هـ) ذكر الجاحظ أنه ألف كتاب (البرصان) ردًا على كتاب الهيثم بن عدي، وهو بضع صفحات، ألحقها عبد السلام هارون في ذيل كتاب (البرصان والعرجان والعميان والحولان) ص564-ص570، ويتناول في هذه الصفحات العميان والحولان والعور والزرق والفقم.(الزُرقة: بياض يغطي كل العين، والفَقَم: دخول الأسنان العليا إلى الفم). (ابن منظور: زرق، فقم)

ثانيًا: أورد صاحب كتاب (المحبّر) وهو العلامة الأخباري أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت 245هـ) فصولًا موجزة عن (أشراف العميان، والبُرص من الأشراف، والحولان من الأشراف، والفقم والعرجان والكواسجة الثط منهم)(الكوسج والأثط: قليل شعر اللحية والحاجبين).(ابن منظور: ثطط) واستغرق ذكر ذلك كله الصفحات من 293-304 من كتاب المحبّر، الذي طبعته مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد الدكن، بعناية الدكتورة إيلزه ليختن شتيسز، عام 1942.

ثالثًا: كتاب (البرصان والعرجان والعميان والحولان) لعمرو بن بحر أبي عثمان الجاحظ (ت255هـ)الذي حققه شيخ المحققين عبد السلام محمد هارون، ونشرته دار الجيل بيروت، عام 1993. وهو موضوع هذه الدراسة وغايتها.

رابعًا: أورد ابن قتيبة الدينوري (ت267هـ) فصلا عن العوران في كتاب (المعارف) الذي حققه ثروت عكاشة، ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة 1992م.والفصل نفسه موجود في كتاب (عيون الأخبار) للمؤلف نفسه، منشورات دار الكتب العلمية بدمشق، 2010م.

خامسًا: وجزء (في العميان) ضمن كتاب للخطيب البغدادي (ت463هـ) إشار إليه صلاح الدين الصفدي (ت 764هـ) في مقدمة كتابه (نَكت الهِميان في نُكت العميان) ص504، مشيرًا إلى أنه سمع به (أي بهذا الجزء) ولم يره.

سادسًا: كتاب (رأس مال النديم، في تواريخ أعيان أهل الإسلام)، لأبي العباس أحمد بن بابه (ت510هـ) إذ عقد فيه فصلًا عن (أشراف العميان).

سابعًا: كتاب (تلقيح مفهوم أهل الأثر) لعبد الرحمن بن الجوزي (ت 597) وفيه فصل عن (العميان الأشراف).

ثامنًا: كتاب(نَكت الهِميان في نُكت العميان) لصلاح الدين بن خليل بن أيبك الصفدي (ت764هـ) وهو مقصور على جماعة العميان فقط، وللصفدي أيضًا كتاب (شرح لامية العجم) خصص فيه فصلًا عن (أشراف العميان)، وله كذلك كتاب (الشعور بالعور) وهو كما يظهر من العنوان عمن به (عَوَر) وقد حقق الكتاب عبد الرزاق حسين، ونشرته دار عمار عام 1988م.

تاسعًا: كتاب (النكت الظراف في الموعظة بذوي العاهات من الأشراف) لمحب الدين أبو الفضل بن فهد(ت954هـ) تحقيق وتقديم لمياء أحمد شافعي.منشورات القاهرة: مكتبة زهراء الشرق للنشر والتوزيع، 2014م.

إذن نحن أمام عدد قليل من المؤلفات التي جاءَت على ذكر ذوي الإعاقات والمثالب والعاهات كما كانوا يسمونها، وهي مؤلفات غير شاملة في هذا الموضوع، إنما ورد في أغلبها باب أو فصل أو بضع أوراق عن نوع أو أكثر من هذه الإعاقات، مما يجعل من كتاب الجاحظ مؤلَّفا كاملًا شاملًا متوسعًا متخصصًا في هذا الموضوع والمجال، وهذا ما يكسبه ميزة عن كل الأدبيات التي تم استقصاؤها والإشارة إليها هاهنا، وستكتفي الدراسة الحالية بأشهر عمل منها، هو (عمل الجاحظ)

كتاب البرصان والعرجان للجاحظ: بحث فريد في الإعاقة (تعريف عام)

ألف الجاحظ كتاب (البرصان والعرجان والعميان والحولان) ردًا على كتاب المثالب للهيثم بن عدي (ت207هـ)، وهو حيث أشار إلى ذلك قائلًا: " وذكرت لي كتاب الهيثم بن عدي في ذلك، وقد خبّرتك أني لم أرض بمذهبه، ولم أحبّه له حظًا في حياته، ولا لولده بعد مماته" (الجاحظ، البرصان،ص31)

فهو هنا يخاطب صاحبه ذامًّا له كتاب الهيثم بن عدي، الذي عدّ الإعاقة التي أصابت بعض الناس من المثالب والعيوب والمناقص، فكان هذا مما دفع بالجاحظ إلى تأليف كتاب (البرصان والعرجان والعميان والحولان) يرد فيه على ابن عدي مؤكدًا أن من هؤلاء الناس من يعدّ في علية القوم وأشرافهم وسادتهم. وقد عُني بتحقيق الكتاب وشرحه عبد السلام محمد هارون أحد أبرز علماء التحقيق وأشياخه، ونشرته دار الجيل ببيروت عام 1990م، في ستمائة وخمس وأربعين صفحة، بما فيها فهارس الكتاب

ويبدو أن الجاحظ أراد لكتابه هذا أن يكون موسوعة في بابه، من حيث ما أورد فيه من أنواع الإعاقات مما لم يشملها كتاب قبله أو بعده، فهو يتحدّث فيه عن(البرصان والعرجان والعميان والحولان) كما ورد في العنوان، وعن أصحاب إعاقات أخرى لم ترد في العنوان، كما أشار المحقق، كالحُدب والوقص والصّمان والأُدران والمفاليج، والأشجّين، ومن أصابته اللقوة واعوجاج الوجه، وذوي الأعضاء المرغوب عنها لشبهها بالحيوان، ومن سقي بطنه، وصغار الرؤوس وكبارها، والصلع والقرع، وذوي الجمم (الصدر الأحدب) والأعين، والأعسر.. وغير ذلك.

قيمة الكتاب

أولًا: قيمته الإنسانية

يحمل كتاب الجاحظ (البرصان والعرجان والعميان والحولان) الكثير من القيم التي يمكن الحديث عن كل منها منفصلة عن مثيلاتها، لكنّي

اخترت أن تكون القيمة الإنسانية أهمها، إذ تكمن هذه القيمة في الهدف والغاية من تأليف هذا الكتاب، ذلك أن الجاحظ يصرّح بأنه قام بتأليفه ردًا على كتاب الهيثم بن عدي (المثـــالب) كما ورد سابقًا، الذي نظر فيه ابن عـدي نظرة دونية لذوي الإعاقات، وهو ما لم يعجب الجاحظ، ولم يرضَ به، بل أنكره على مؤلفه؛ وها هو يقول:" وقد خفت أن تكون مسألتك إياي كتابًا في تسمية العرجان والبرصان والعميان والصمّان والحولان، من الباب الذي نهيتك عنه، وزهّدتك فيه(الجاحظ، 1990،ص3-31) فعدم رضى الجاحظ هنا يعود إلى أنه لم يجـــد في كتاب ابن عدي تلك النظرة الإنسانية التي يجب أن يُنظر من خلالها لذوي الإعاقات، بل إن الجاحـــظ يذهب لما هو أبعد من ذلك حين ينظر إليهم نظرة احترام وإجلال، فالعلةُ والمرض، أو النقص والخلل في الأعضاء والأجساد، ليس عيبًا ولا منقصة، ولا سيـــما أن الإنسان لم يختر لنفسه هذا الخلل، ومن هنا راح الجاحظ ينظر إلى ذوى الإعاقات أو العاهات نظرة مشرقة، وبنى كتابه على فكرة مفادها: أن عاهات هؤلاء الناس وإعاقاتهم لم تكن لتمنعهم من الوصول إلى مراتب الرفعة والشرف بين أقوامهم " وقد مهـــّد لذلك بسرد شواهد وآثار من أدب العرب القدامى والمعاصرين له، في الاعتزاز ببعض العاهات والدفاع عنها، والصعود أحيانًا إلى الفخر بهـا، والتمدح وصدق الانتماء.. وهذه نظرة كريمة منه، وعزاء لمن تلقّ هذا الحظ في دنياه بالرضا والصبر، أو بالسخط والجزع" (نفســـه، مقدمة المحقق، ص15)

مما يجعل نظرة الجاحظ إلى هؤلاء القوم تصدر عن حـــس إنساني مرهف، وموقف كوني شمولي، ربما تأثر بمصادر دينية معينة، وأضاف إليها نظرته الخاصة التي راعت مشاعر المعاقين وأحاسيسهم، وقدمت لهم الدعم الاجتماعي والنفسي، في رؤية جاحظية فريدة تنم عن خبرة في معالجة النفوس ومعرفة بما يؤثر فيها الأثر الإيجابي، الذي يحقق لها الخير والمنفعة، فضـلًا عن القصد إلى تغيير صورتها النمطية بين الناس في المجتمع، يقول:" والعُرج الأشراف – أبقاك الله – كثير والعُمي الأشـراف أكثر وإنّ جماعة فيهم كانوا يبلغون مع العَرَج ما لا يبلغه عامة الأصحاء، ومع العَمى كانوا يدركون ما لا يدرك أكثر البصراء "

(الجاحظ، البرصان، ص33)

فهو بهذا يدلل على أن العاهة أو الإعاقة قد تكون سببًا في دفع صاحبها للعمل بما يحقق له المجد والمكانة الرفيعة وقد ربطت بعض الدراسات بين المأساة الشخصية والإنجاز أو التفوق والإبداع، إذ قد" تضرب الفاجعة بنصلها عميقًا، ليتفجر بعد وقوعها مباشرة ينبوع الإبداع من رحم الألم"(عيد،2000:ص319)

وهو يذكر هذا الشرف والرفعة في الشأن عند المعاقين، ولا يقف عندهما فحسب، بل يذهب لتوضيح موقف أصحاب الإعاقات من إعاقاتهم، بالسخط أو الرضا، فها هو" أبو راشد الضّبي، وكان أعرج ثم عُمي، ثم أُقعد من رجله.. فلما صار أعرج أعمى لم يتعاط المشي قال عن نفسه:

أرى كل داءٍ فيه للقوم حيلةٌ   وداؤك مسمور الرتاج عسير

فصبرًا إن الصبر أجدى مغبةً   عليك، وأنواع البلاء كثير" (الجاحظ، 1990: ص195)

ويذهب إلى أنه سيحكي للقاريء بعض حكاياتهم، وما تتضمنه من توضيح لحالاتهم، وإمكانات لعلاجهم "ولو ذكرنا – حفظـك الله – أنه ممن سُقي بطنه (أي شُق بطنه) عثمان بن أبي العاص.. وفلان وفلان، ثم لم نذكـــر حسن عزائهم، ونوادر كلامهم عند نزول تلك الحوادث، وعند توقع الفرج من تلك المضائق، وأي شيء كرهوا في أصناف العلاج وحرموه، وأي شيء استجازوه واستحلوه، الذي رووا من الأحاديث في ذلك الداء، والروايات في ذلك الدواء، وكيف كانت تعزية العائد وجواب المعود، وكـيف كان دعاؤهم، وبأي ضرب من الكلام كان ابتهالهم، فإن ذلك عظـة لمن سمعـــه، وأدب لمن وعاه، وصلاح لمن استعمله" (نفسه:ص34)

وقد أشار الجاحظ إلى إنسانية الحاكم في التعامل مع ذوي الإعاقات ومراعاة ظروفهم وحالاتهم، حتى إنه كان يمنحهم دارًا قريبةً من المسجد حتى لا يشق عليهم يقول الجاحظ: " رحل سلمان إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إني رجل أعرج، ولا قوة لي على المشي إلى المسجد، فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص: أنْ أقطعِه أقرب المواضع إلى المســـجد(نفسه:ص322) فضلا عن أن الحاكم كان ينظر في ركوبة ذوي الإعاقة والدابة التي يركبها، فان لم تكن تصلح أعطاه افضل منها، فقد جاء أحدهم إلى عمر بن الخطاب " وشكا عَرَج رجله، وضَلْع ناقته (إعوجاج مشيتها) فقبض عمر الناقة، وحمله على جمل وزّوَده "اي بزاد وطعام(نفسه: ص338)

لهذا كله يمكن وصف منهج الجاحظ في هذا الكتاب بالمنهج النفسي الاجتماعي، والعلمي العلاجي، الذي يمزج بين الحديث عن أحوال هؤلاء المصابين، النفسية والمرضية، ونظرة المجتمع إليهم وسلوكه معهم.. فضلًا عن حكايات التداوي وأحواله التي سلكها هؤلاء في رحلة علاجهم من تلك العلة وذلك المرض، كما سيتضح لاحقا.

فخر ذوي الإعاقات (جماليات القبح)

لم يفت الجاحظ أن يسّجل الأقوال والأشعار التي مدح بها العرب ذوي الإعاقات، أو التي أوردها هؤلاء أنفسهم فخرًا بذواتهم وما لحقها من إعاقات، يقول الجاحظ: "وإذا كان الأعرابي يعتريه البرص فيجعله زيادة في الجمال، ودليلًا على المجد، فما ظنـــك بقوله في العرج والعمى، وهما لا يُستقذران، ولا

يُتقزز منهما، ولا يعديان، ولا يُظن ذلك بهما، ولا ينقصان من تدبير، ولا يمنعان من سؤدد" (نفسه:ص37) وهذا فيه رفع من شأن هؤلاء الناس، وكأننا أمام نظرية في (جماليات القبح) إن جاز لنا وســـم الإعاقة بالقبح، ولكنه تعبير يستند إلى الشائع المتداول بين الناس،حيث يرى أمبرتو إيكو في مقالة له عن (جمالــيات القبح):

" أن ملامح الجمال أو القبح لا تعود في الغالب إلى معايير علم الجمال، بل تعود إلى معايير اجتماعية" (إيكو،2012)

وهي المعايير التي يريد الجاحظ أن يؤسس لها في هذا الكتاب، عبر نظرة مغايرة تفلسف مفاهيم (الجمال والقبح) وتعمل على إعادة إنتاج لهذه المفاهيم وفق وعي أدبي وفكري يمكن تأمله وتفحصه لتكوين معرفة جديدة لم تختبرها ثقافتنا العربية من قبل، وهي معرفة ينتجها الجاحظ بصفته قارئًا، وفق المفهوم البنيوي لدور القاريء، الذي " يؤكد أنّ القرّاء يكوّنون المعنى، أكثر من أنهم ببساطة يستقبلونه"(عبد الحميد،2001:ص62)

فقد جعل الجاحظ البَرَص مظهرًا جماليًا، وجعل من الأعمى والأعرج قادرين على إدارة شؤونهما وتدبيرها، بل قادرين على تسلّم السيادة بين أقوامهم، ويدلل على ذلك بجملة من أشعار العرب، يقول: " وسأنشدك إن شاء الله بعض ما افتـــخر به الأعمى، واحتّج به الأعرج، قبل أن تصير إلى قراءَة الجميع، لأعجّل عليك معرفة الجملة من مذاهبهم وبالله التوفيق.

فمن العرجان: أبو الدهماء، وهو الذي عيّرته امرأته بالعَرَج فقال:

ما ضرّ فارسهم في كل ملحمةٍ تَزَحّف العُرج بين السجف والنضد

إن كان ليس بمرقالٍ إذا نـزلوا ففي الفروسةِ وثّاب على الأسـد

وخطب الطائيّ الأعرج امرأة فشكت عرجه إلى جاراتها، فأنشأ يقول:

تشكي إلى جاراتها وتعيبني فقالت معاذ الله أنكــــح ذا الرجلِ

فكم من صحيح لو يوازن بيننا لكنّا سواء أو لمـال به حملـــي

وقال أبو العملس في امرأته:

ما ضرني أني أدبّ على العصا وفي السرج ليث صادق ضيغم الشدّ"(الجاحظ، 1990: 45-46)

فهذه الشواهد وغيرها يدلل بها الجاحظ على أن الإعاقة لم تكن لتحول بين هؤلاء والأفعال العظيمة، والأمور الشريفة، بـــل إن الموازنة والمقارنة ترفع من شأن هؤلاء الناس أحيانًا، فيتغلبون على أندادهم من الأصحاء. وقد عني الجاحظ بذكر ما يستعيض به بعض أصحاب الإعاقات من وسائل تعوضهم ما فقدوه، كالعصي عند الأعمى، وركوب الخيل لدى المشلول، يقول في ذلك: " وما ضرّ- أكرمك الله – هرثمة بن أعين، ونصر بن شبث، وغيرهما من الرؤساء المقربين المحاربين الذي كان يمنعهم مـــن المشي، إذ كانوا على ظهور الخيل أمثال العقبان" (نفسه،ص 47)

وقد أفاض الجاحظ في هذا الكتاب في ذكر مفاخرات العميان والعرجان والبرصان وغيرهم، ويذكر محاسنهم وفضائلهم. وبسبب من موسوعية الجاحظ وشمولية تأليفه، فقد حاول أن يذكر أقصى ما يمكن ذكره من أنواع المثالب والإعاقات، مما يجعل الكتاب موسوعة شاملة في هذا الباب، فنجده يذكر فضائل ومفاخرات الأعمى، والأعرج والأبلق(من خالط سواده بيـــاض)، والأحلج (الحلج:نوع من العرج) والأبرص والشميط(أبيض الشعر) والأوضح(شديد بياض الجلد) وغيرذلك.

لقد كان هذا المنهج الجاحظي في تحفيز أصحاب الإعاقات، وذكر مناقبهم ومحاسن أخلاقهم وأفعالهم عميقًا في إنسانيته، فريدًا في معرفته بخبايا النفس الإنسانية، وكيفية تحفيزها والارتقاء بها نحو الفضائل، وإنّ كـــل من يقرأ هذا الكتاب من هؤلاء الناس، الذين ابتلوا بأنواع الإعاقات، لا شك في أنه سيغدو سعيدًا بما يقرأ، ويعيد النظر بثقته بنفسه، كيف لا؟ وفي المجتمع أناس ينصفونهم، وينظرون إليهم بعين الرضا، ويعلمون أن أصحاب الإعاقات قادرون على العطاء والإنجاز، وليسوا عجزة أو مقعـدين كما يظن بعض المثبّطين الساخرين.

ومن جميل الأمثلة التي استطرد بها الجاحظ في هذا المجال، التي تعمل على ترسيخ الصورة الإيجابية الفاعلة لهؤلاء الناس، قوله: " ومن أشراف العُرجان: الحارث بن شَريك الشيباني، وهو الحوفزان، قال مقّاس العائذي فيه:

لا توعدونا بالهذيل فإـــننا مع الحوفزان يجمعُ الجيش غازيا

فتى هو خير من أبيكم بقيةً كما نحن خير أنفـــسًا ومواليا

لأنه كان غزّاءً لم ندرك في هذا الباب مثله"(نفسه: ص178)

وبعض ذوي الإعاقات كانت نظرتهم إلى أنفسهم وثقتهم بقدراتهم هي التي ترفع من شأنهم، وهذا نهج تعليمي تربوي من الجاحظ يدفع به إلى ذوي الإعاقات ليثقوا بأنفسهم وقدراتهم، فها هو يذكر كيف كان الأقرع بين حابس يعد نفسه بألف رجل فهو " من العرجان الأشراف، ساير النبي عليه السلام في مرجعه من فتح مكه وقال له النبي (ص): ما أخّر قومك عن مثل هذا الأمر؟ قال: يا رسول الله: لم يتأخر عنك قوم معك منهم ألف رجل"(نفسه: ص184) يعني أنه يعدّ بألف رجل.ومن أبطال الفتوحات أيضًا موسى بن نُصير فاتح الاندلس فقد " رأى الوليد بن عبد الملك في المنام أن رجلًا من أهل الأندلس (أعرج) يكنّى أبا عبد الرحمن، من أهل الجنة، يفتح الله على يديه المغرب "(نفسه: ص192) ويستمر الجاحظ في ســـرد قصصهم وأخبارهم

مبينًا مناقبهم ومآثرهم، وأنّ منهم الشعراء والبلغاء، ورواة النوادر والأخبار، وعلماء اللغة والنحو، والقضاة، بل منـــهم بعض الملوك والزعماء، كما ورد في أمثلة متفرقة من هذا الكتاب.

ولم يقتصر الجاحظ على إيراد الشواهد الشعرية والأدبية حول افتخار هؤلاء الناس بعماهم أو عرجهم أو برصهم أو غير ذلـك، بل عني أيضًا بتسليتهم وتعزيتهم والرفع من معنوياتهم، قال: " ما رأينا أحدًا قط أبلّ ريقًا، ولا أتمّ نفسًا، ولا أربط جأشًا من أبي أسيد عمرو بن هدّاب كان عنده ناس يعزونه إلى ذهاب بصره، إذ مَثَل أبو عتّاب الجرار بين يديه.. فقال: يا أبا أسـيد، لا تحزن على ذهابهما، فإنك لو قد رأيت ثوابهما في ميزانك لقد تمنيت أن يكون الله قد قطع يديك ورجليك، ودق ظهــرك وأدمى ظِلفك" (نفسه، ص66)

ثانيا:القيمة الاجتماعية

والجاحظ في هذا الكتاب ينتقد بعض الآراء الاجتماعية الخاطئة في تفسير الإعاقات والعاهات، فهو لا يوافق من يـــرى أن البَرَص إنما يحدث للإنسان نتيجة عقوق الوالدين: " وقالوا (عن البرص) هذا شيء أخذه جعفر بن يحيى عن أطباء الهنـد، وأطباء الهند تزعم أن العقوق يورث البرص. وهذه القضية مجانبة لسبيل الطب" (نفسه: ص68) وينتقد الجاحظ بشـــدة أن يتهامز الناس ويتلامزون ويتسابون، ويتهمون بعضهم بعضًا بالعاهات، فقد " زعم بعضهم أن أم الفرزدق كانت برصاء، لسبب قول جرير:

ترى برصًا بأسفل إسكتيها   كعنفقه الفرزدق حين شابا

(ويعني بإسكتيها: جزءًا من فرجها، وبالعنفقة: الشعر تحت الشفة السفلى) وإنما هذا سفــه وتفحّش يُلتمس به غيظ المنسوب، وأكثر من يتكلم بمثل هذا: السفيه، الضيّق الصدر، الذي يقول لصحابه: يا ابن الفاعلة، وليـس يقدّر فيه أن الناس يجعلون قوله ذلك شاهدًا، وإنما هو تشفّي غضبان يريد بذلك الفحش، وإدخال الغيظ" (نفسه:ص163) وهذا بعد تربوي اجتماعي، وقيمة أدبية يؤسس لها الجاحظ، منتقدًا هذا السلوك، ورافضًا أن يكون الشعر والأدب ميدانًا للشتائم والسباب بين الـــناس، كما أنه يرفض كل قول يرى في العاهة والإعاقة منقصةً ومثلبة، يقول: "وهجا بعض الشعراء ولدَعمر بن عُدُسَ (أي أولاده) ورماهـــم بالبرص، فقال:

وما كان أفواه الكلاب وبقعها   لترحل إلا في الخميس العرمرم" (نفسه:ص 481)

كما انتقد الجاحظ قول بعضهم: " إنّ الفالج من أمراض الأنبياء، ولا أعرف إسناد هذا القول"(نفسه: ص483)وكأني به يرفض مثل هذه الإشاعات الاجتماعية التي لا تستند إلى سند صحيح، وهي مجرد إشاعات ينبغي الحذر من الأخذ بها. ومثل ذلك ما يشيع من الخرافات: "فأما ما ترويه رواة السوء من شأن المغيرة بن الغرز، فهو من المحال الذي لا يخيل على ذي عقل،قالوا: التقيا فاختلفا ضربتين، فضرب المغيرة وسطه، فمن شدة ضربته مرّ السيف في وسطه حتى نفذ من الجانب الآخر والمضروب لم يشعر به، ثم قال المضروب للمغيرة: ما صنعت شيئًا! قال المغيرة:إن كنت صادقًا فتحرك، فلما تحرك تباين نصفاه، فسقـط أحدهما عن يمين الفرس والآخر عن يساره. فهذا من أحاديث الخرافات، وليس يحتمل هذا الضرب من الأحاديث إلا من لا علم له "(نفسه:ص378)

ومن عجيب ما يثبته الجاحظ في هذا الجانب الاجتماعي، لفته الأنظار إلى سلوك غريب يشبه ما تقوم به العصـــابات الكبيرة (والمافيات) في بعض البلدان في عصرنا هذا، وهو أن بعض الآباء والأمهات يعطون أبناءَهم لشخص يدعـــــى (المشعِّب) ليصنع فيهم عاهات لاستغلالهم في الكدية والتسول " فيعلق على ذلك بقوله فلا أدري أيهم أعظـــم كفرًا وأقسى قلبًا: الآباء والأمهات الذين يسلمون أولادهم إلى المشعّب حتى يعمي أبصارهم، ويُعرِج أرجلهم، ويزمنهم (بعاهة مزمنة)، ويشـــوّه بهم، أو المشّعب نفسه، الذي ترك كل صناعة في الأرض، وتعلّم هذه الصناعة فجعلـها مكسبته التي لا يفارقها"(نفسه: ص366) ولا شك في أن قوله (أعظم كفرًا، وأقسى قلبًا) دلالة واضحة على رفضه واستنكاره لهذا الفعل، وهذه الجريمــة، فلا أعظم كفرًا ولا أقسى قلبًا ممن يشترك في هذا العمل المنكر الذي ترتكبه بعض شرائح المجتمع، دون حسّ أنساني، أو مقدار ذرة من رحمة.

ثالثا: الجانب الثقافي الديني

كعادة الجاحظ، لا يمكن لمؤلف من مؤلفاته أن يخلو من هذا البعد الثقافي الديني، الذي يتمثل بالاستشهاد على ما يقول ببعض الآيات، أو استعراض بعض الأحاديث أو الأخبار التي تتعلق بثقافته ومعرفته الدينية. فمما يتعلق ببعض آيـات القرآن الكريم يذكر الجاحظ ماروه عن لقمان و(لُقيم) بن لقمان (نفسه:ص311) وهذا الاسم لابن لقمان الحكيم ليس مشـــهورًا في كتب التفاسير) ومن طريف مذهب الجاحظ تفسيره لمَ خلق الله المرأة من ظلع أعوج، حيث استشهد بهذا ليبيّن خلو من كان في قدمه (عَوَج) من العيب أو المنقصة(نفسه: ص 263)

أما في الحديث الشريف فنجد بعض الأمثلة التي يستثمرها الجاحظ لأخذ العبرة من تصرفات الرســـــول الكريم تجاه ذوي العاهات، ومن ذلك بيان موقفه عليه الصلاة والسلام ممن به بياض ببعض جسمه، والستـر عليه، كما في روايته قصة أحد البرصان المجاهيل الذي طلب من رسول الله تفسير رؤياه، فقال عليه الصلاة والسلام: ((أما الآتان الذي وضـعت جديًا، فهي جارية لك أصبتها فولدت غلامًا، قال، فما باله أسفع أحوى؟ (أي به سمرة خالطها صفرة) قال عليه السلام: أدنُ مني. فدنوتُ منه فقال لي: (أبك بياض؟) قلت: نعم، الذي بعثك بالحق ما رآه أنسيّ علمته..)) (نفسه:ص158-159)

والشاهد هنا كيف ستر النبي عليه الصلاة والسلام هذا الرجل، ولم يذكر قصة بياضه (برصه) أمام الجالسين، كما كان عليه السلام يمدح من يعيبه الناس في عاهته أو إعاقته، ويصحح نظرتهم إليه لما فيه من التقوى والصلاح، يقول الجاحظ: " أمــر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن مسعود أن يصعد شجرة فيأتيه بشيء منها، فنظر أصحابه إلى حموشة ساقيـــه (ضعفهما) فضحكوا منها، فقال النبي عليه السلام: ما تضحكون؟ لرِجْلُ عبدالله في الميزان أثقل مــن أُحد"(نفسه: ص275)

ويقصد الجاحظ من هذا الحديث تعزية كل من بجسمه عيب أو ضعف ما دام على تقى وعلم وصلاح.كما أورد الجاحظ حديث النبي عليه السلام في معاذ رضي الله عنه وكان من العرجان، قائلًا: " آمن كل شيء من معاذ حتى خاتمه"(نفسه: ص326)

وكذلك اهتم الجاحظ بأن يبيّن للقاريء لمَ رفض رسول الله عليه الصلاة والسلام رخصة ترك الجماعة لعبدالله بن أم مكتــوم (وقد كان ضريرًا) مبينًا أن هذا الأمر كان في بداية الإسلام، والمسلون قلة، وجازت هذه الرخصة بعدما انتشر الإســلام وكثر عدد المسلمين: "إنما جاز ذلك اليوم لاستفاضة الإسلام وعلوه على أعدائه، وظهور شأنه وتمكن أركانه"(نفسه:ص173)

رابعا:القيمة اللغوية.

يكاد كتاب الجاحظ الذي بين أيدينا أن يكون معجمًا خاصًا بألفاظ العاهات والإعاقات التي تصيب جسم الإنـسان، فقد حصر هذه الألفاظ على كثرتها وفسّرها، وبيّن مواضعها وحالاتـــها، واستشهد لها بآي القرآن الكريم والحديث الشريف، وأبيات الشعر وأقوال العرب، وإن هذا الجانب وحده يصلح لأن يكون بحثًا مستقلًا قائمًا بذاته، لا يتسع له المقام في هذه الدراسـة. غير أني سأكتفي ببعض الأمثلة اليسيرة للفت النظر إلى القيمة اللغوية لهذا العمل. فعلى سبيل المثال يحاول الجاحظ حسم الجدل اللغوي في معنى كلمة (نجم) قائلًا: "ويقال إن جميع نبات الأرض على ثلاثة أصناف: نجم، وشجر، ويقطين؛ عما كان قائـمًا على غير ساق فهو نجم، وما كان متفرعًا ذا أغصان ومتشعّبًا بأفنان فهو شجر. وما كان منبطحًا منسطحًا كالقرع والبطيخ وما أشبه ذلك فهو يقطين، وفي القرآن الكريم:(والنجم والشجر يسجدان) فمن ذهب في النجم إلى غير هذا فليس يذهب إلى (الثريا) إنما يذهب إلى قول الشاعر:

فباتت تعدّ النجم في مستحيرة سريع على أيدى الطهاة جمودها

إنما وصف جفنة غراء (طعاما عليه شحم) كثيرة الإهالة (الدسم) قدّمها إلى أضيافه ليلًا.. ولا يستقيم في هذا الموضـــع أن يعني نجم: الثريا " (نفسه: ص279- ص280) وفي موضع آخر نجده يفرّق بين لفظـة وأخرى اشتكل معناهما على الناس، كقوله: " والأقزل أسوأُ حالًا من كثير من العرجان"(نفسه: ص299) ومن هذا أيضًا تفريقه بين (العَرَج) و(العَرْج): "أما قولــه:

ألم تر أنّ الغزو يُعرِج أهله مرارًا وتكرارًا يفيد ويورق

فليس قوله (يُعرِج) مأخوذًا من (العَرَج) بفتح الراء، وإنما هو من (العَرْج) بإسكان الراء، والعَرْج:ألف بعير أو شبـــيه بألف" (نفسه:ص418) ومثل هذا ما حكاه من تفصيل حول معنى كلمة (الفَلَج)، ((وقالوا: الفَلَج في الرِّجْلين: شيء يكون بــين الفَحَج والعَرَج. والفَلَج أيضًا في الثنايا ويقال: مُفلَّج الثنايا، ومن ذلك تفاح مُفَلَّج. وإذا كان الرجل كذلك قيل: رجلٌ أفلَج. بيّن الفَلَج"(نفسه: ص445) ثم يمضي يفصّل معاني هذه الكلمة واستخداماتها صفحات عدة.

خامسا:القيمة العلمية

ولا شك في أن الجاحظ الذي ألّف كتاب (الحيوان) بما يحمله من دلالات علمية في هذا المجال وما يتعلق به، وبما نعرف عنه من منهج الموسوعية والاستطراد لن يدع فرصته الإمساك بالمعلومة العلمية أن تفلت من بين يديه، سواء أكانت هذه المعلومة تتعلق بالحيوان أم الإنسان. فها هو يشرح علة العدْو والسرعة للحيوانات المختلفة، " ويقال إن سعة الجلد من أعون الأمور على بُعد الوثبة، وإذا كان فضفاض الإهاب، واسع الإبطين، وكان طويل العنق، لا يسبقه شيء... فالبعير يعدو بطول عنـــقه، والثور يسرع بسعة جلده، ويبطيء بالوَقَص (القِصَر) الذي في عنقه، والحمار يسرع بطول عنقه، ويبطيء بضيق جلده، والفرس يسرع بسعة إبطه وجلده وبطول عنقه.."(نفسه: ص291-292)

ويوجز القول في سباحة الكائنات الحية، فيقول: " وجميع الحيوانات إذا سقط في الماء سبح ونجا، إلا الإنسان والقرد، والفرس الأعسر، فأما الإنسان فإنه بالتعليم يصير سبّاحًا، وأما القرد والفرس الأعسر فليس إلى سباحتهما سبيل"(نفـــسه: ص540)

ولا ريب أن معرفته العلمية وثقافته في الحيوانات ماثلة في فكره، ولربما استخرجنا من هذا الكتاب مقالة مفيدة ومستقلة في علم الحيوان وعاداته وأحواله، حتى إنه يحكي لنا عن طيب روائح الفم أو قبحها لبعض الحيوانات " وقد زعموا إنما قيل لهـم أفواه الكلاب لمكان البَخَر (رائحة الفم الكريهة) وقد كذبوا... فكل سبع يكون طيّب الفم كالكلب وما أشبهه فإنه لا يوصـف بذلك. وإنما يعتري ذلك مثلَ الأسد والصقر وكل شيء جاف الفم... ويزعمون أن الظباء أطيب البهائم أفواهًا، والدليل على نتن أفواه الأُسد قول الحكم بن عبدل:

ونكهته كنكهة أخدريّ شتيم شابك الأنياب ورد " (نفسه: ص164-165)

ومما له تعلق بموضوع العاهات والإعاقات في الحيوان ما يرويه الجاحظ عن العُرج منها وغير العُرج، يقول: ("ومن أصنـاف الحيوان عُرج وأشباه

العرج، وأشكال من المشي واختلاف في العدو، فمن العُرج الضبع... ثم الذئب، وهو أقزل.."(نفســه: ص212) ثم يستطرد في استعراض أنواع المشي عند الحيوانات، بطريقة سردية مشوّقة، مدعّمه بالأشعار والحكايات والأقوال.

ومن الثقافة العلمية التي يوردها في هذا الكتاب، وهو ما صح في علوم المحدثين، ما قاله عن سمنة المرأة وبعض الحيــوان، فحكى " إن المرأة والشاة والأتان (أنثى الحمار) والناقة إذا سَمِنَّ جدًا صرن عُقّرًا" (نفسه: ص28)ومن الآراء العلمية التي يبثها الجاحظ في ثنايا هذا الكتاب حديثه عن (البقير) المولود الذي يستخرج من أمه بعد شق بطنها، إذا ماتت وهي تلده، فإنــه يولد مصفرّ الجلد " وكان خارجة بن سنان بقيرًا، ماتت أمه وهي تطلق به، فاستخرج من بطنها فسمي (خارجة)، ويزعمون أن البقير من الناس والخيل يعرف ذلك من لون جلده"(نفسه: ص153-154)

وبطبيعة الحال فإنّ هذه الثقافة العلمية تقع في صلب الميدان الطبي، وقد أورد الجاحظ الكثير من مثل هذه الآراء الطبـية مما يتعلق بالعاهات والإعاقات، وبعض الأمراض، وكيفية معالجتها أحيانًا، حيث يقوم بعض الأطباء بكسر العظم لينمو أشــد من قبل " وذلك أنّ العرب تزعم أنْ ربّ عظم إذا جُبر بعد الكسر يصير أشد... وفي المثل (كأنما كُسر ثم جُبر) "(نفــسه: ص215-216)

ومن ذلك ذكره للعلاج الذي كان يتبعه أحد البرصان، وهو أيمن بن خُريم بن فاتك " وكان أيمن يخضب يده ليغطّي البــياض بالوَرْس "(نفسه: ص168) كما ذكر علاج أحد أصحاب الإعاقات وهو الأحنف بن قيس، الذي ولد وليس له فتحه شـــرج " ولد الأحنف مرتتق حتار الأست حتى فُتق وعولج" (نفسه: ص314) وعن علاج الأنف إذا أُصيب قال:" عن أبي الأشهب، سمع عبد الرحمن بن طرفة أنّ أنفه أصيب يوم الكلاب فاتخذ أنفًا من ورق فأنتن عليه، فأمره سول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفًا من فضة"(نفسه: ص480) ويرى المحقق أن الحديث مما ورد في سنن النسائي(النسائي، د.ت: 8:164)

خاتمة:

وبعد، فإن كتاب (البرصان والعرجان والعميان والحولان) كتاب فريد في مكتبتنا العربية، ويدل تأليف الجاحظ لهذا الكـــتاب على رغبة ملحّة منه، بصفته أحد أبرز رموز تراثنا الأدبي وثقافتنا العربية، في إنصاف الأشــخاص المعاقين المبتلين وذوي الاحتياجات الخاصة، لذا جاء هذا العمل الأدبي ليعيد الاعتبار لهذه الشريحة من الناس، ويعيد إنتاج النظرة الاجتماعية لهم؛ بعدما لاقوا من الظلم والتهميش ما لاقوا.. فالجاحظ في هذا النتاج المتميز يرفض أي انتقاص من قدرهم وشـــأنهم، ويؤكد للقارئ أنّ أصحاب الإعاقات تسنموا مراتب عليا في مجتمعاتهم وبين أقرانهم، وقد شهدت بذلك أشعار العرب وأخبارهم، فمثّل الكتاب قيمة إنسانية كونية في نظرته الكلية لمن ابتلاهم الله سبحانه بشيء من النقص أو الإعاقة، وفي تلك النظرة بعد تربوي اجتماعي وعلمي يدفع بالمجتمع، قديما وحديثا على حدّ سواء، لأن يراجع نفســـــه في موضوع التعامل مع المعاقين وذوي الحاجات الخاصة، الأمر الذي يكسب الكتاب قيمته الإصلاحية الجوهرية، فضلا عما يتضمنه من قيم أخرى تم استعراضها في هذه الدراسة على وجه التفصيل.

المصادروالمراجع

ابن باجة،أ.(1988)كتاب رأس مال النديم، في تواريخ أعيان أهل الإسلام، دار المجد، القاهرة.

ابن الجوزي،ع.(2002)كتاب (تلقيح مفهوم أهل الأثر) منشورات الأثير، دمشق.

ابن عدي،هـ.(1991) كتاب (المثالب) كتاب الجاحظ (البرصان والعرجان والعميان والحولان)

ابن فهد،م.(2014)كتاب (النكت الظراف في الموعظة بذوي العاهات من الأشراف) تحقيق وتقديم لمياء أحمد شافعي.منشورات القاهرة: مكتبة زهراء الشرق للنشر والتوزيع.

ابن قتيبة،د. (2010) كتاب (المعارف) حققه ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة..

ابن قتيبة،د.(2010)كتاب (عيون الأخبار)، منشورات دار الكتب العلمية بدمشق.

ابن منظور، ش.(1990) لسان العرب، دار صادر،بيروت.

إيكو،أ.(2012) جماليات القبح، مقالة مترجمة منشورة على صفحة الفيس بوك للمترجم: علي محمد سليمان WWW.FaceBook.com

البغدادي،ح.(1987)كتاب(المحبّر)
www.Researchgate.net

الجاحظ،ع.(1991) كتاب (البرصان والعرجان والعميان والحولان) حققه شيخ المحققين عبد اسلام محمد هارون، دار الجيل بيروت.

رشيد،ص.(2016) لماذا عادى الفلاسفةُ المعاقين وأصحاب العاهات؟ المجلة العربية،الرياض، ع 527

ستيوي،ع.(2020)الاتجاهات نحو الأطفال المعاقين عبر التاريخ،
www.paralympic.ly/sum/ba7et.doc

السرجاني،ر.(2006)رسول الله وحقوق المرضى وذوي الإحتياجات الخاصة،موقع www.Islamstory.com

الصفدي،ص.(1911)كتاب(نَكت الهِميان في نُكت العميان) تحقيق أحمد زكي بك، دار المدينة،القاهرة.

الصفدي،ص.(د.ت) كتاب (شرح لامية العجم) منشورات الجمل، القاهرة

عبد الحميد،ش.(2001) التفضيل الجمالي، عالم المعرفة، الكويت، عدد 267.

علي،أ.(2010) تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع ذوي الاحتياجات الخاصة، www.Researchgate.net

عيد،ح.(2000) الفاجعة الشخصية والإبداع، مجلة عالم الفكر، مجلد 28،عدد4،إبريل- يونيو.

عيسوي،ص.(2020) أدب الطفل والإعاقة من منظور النقد، https://almanalmagazine.com

فردي،س.(2018) تجليات شخصية المعاق في الرواية الجزائرية، رسالة ماجستـــير مسجلة بجامعة العربي بن مهيدي، بالجزائر.

ميان،ح.((2019كيف تعامل الإسلام مع المعاقين، موقع صيد الفوائد، www.Saaid.net

النشار،م.(2011) في فلسفة التعليم: نحو إصلاح الفكر التربوي العربي في القرن الحادي والعشرين